شعر الرثاء في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة
(للسان الدين بن الخطيب)

فاطمة مُحَمَّد علي سليمان
مدرس مساعد بكلية الآداب
جامعة الفيوم

يناير ٢٠١٦

شعر الرثاء في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة
(للسان الدين بن الخطيب)

فاطمة مُحَمَّد علي سليمان
مدرس مساعد بكلية الآداب
جامعة الفيوم

مقدمة:

يعد شعر الرثاء من أقرب الأغراض الشعرية قربًا للنفس البشرية، وأصدقها على الإطلاق." فهذا اللون من الشعر تعبير ذاتي بطبيعته ينفس عن لواعج النفس وانفعالاتها إزاء موقف معين وكان وسيلة لتكريم المرثى وتخليد مآثره"[١]. إن ما يعتري النفس البشرية من فقد حبيب أو عزيز لديها، يجعلها تأن وتخرج ما لديها من أحاسيس ومشاعر، إن الرثاء ألصق الفنون بالنفس الإنسانية، لقد وجد منذ الجاهلية" إذ كان النساء والرجال جميعًا يندبون الموتى، كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبنين لهم مُثنين على خصالهم، وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت، وأن ذلك مصير محتوم"[٢].

وقد حذا الأندلسيون حذو المشارقة في قصيدة الرثاء؛ فاستهلت بالحديث عن الميت ومناقبه، ومعاني الأسى والحرمان، وهذا يؤكد أنه" ليس بين الرثاء والمدح فرق، إلا أن يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت، مثل "كان" أو "عدمنا به كيت وكيت"[٣]، وهذا ما يؤكده قدامة بن جعفر حينما قال إنه" لا فصل

---

(١) د. نافع محمود: اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، ط١، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ١٩٩٠م، ص١٧٥.

(٢) د. شوقي ضيف: فنون الأدب العربي "الرثاء"، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ص٧.

(٣) ابن رشيق القيرواني: العمدة، ت : د. النبوي عبد الواحد شعلان، ط١، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج٢، ص٨٣١.

بين المدح والتأبين إلا في اللفظ دون المعني فتأبين الميت إنما هو يمثل ما كان يمدح به في حياته"[٤]. وتتنوع صور التعبير في شعر الرثاء، وينقسم إلى عدة أنواع وهي:

أ- الرثاء الخاص.

ب- الرثاء الرسمي.

ج- الرثاء السياسي "رثاء المدن والممالك الزائلة".

د- رثاء النفس والشعر المنقوش على القبور .

أ) الرثاء الخاص:

هذا النوع من الرثاء يختص بمن فقد الأهل والأصدقاء، ونرى فيه صدقًا في العاطفة، ونغمة من المرارة والأسى، ويغلب عليه الطابع المأساوي المرير،" لأنه يصدر عن أغوار النفس الإنسانية، ويعبر عن اللوعة والحسرة التي تنتابها عند فقد من أحبت. ولا يملك الشاعر إزاء هذه العاطفة الحارة الحزينة الملتاعة إلا أن يصدح في شعره بأحزانه وآلامه"[٥]. ومن أمثلة الرثاء الخاص في كتاب الإحاطة، قصيدة لابن الخطيب في رثائه لوالده، يقول ابن الخطيب(من الطويل):

سِهَام الْمَنَايَا لاَ تَطِيشُ ولا تُخطى وَلِلدَّهْرِ كَفٌّ تُسْتَرَدُّ الذي تُعْطَى
وإنَّا وَإِنْ كِنّا عَلي ثَبَجِ الدُّنَا فَلاَ بُدّ يَومًا أن نَحلَّ عَلَى الشَّطِّ
وَسِيَّانِ ذُلُّ الْفَقْر أَوْ عِزَّةُ الْغِنَى وَمَن أَسْرَعَ السَّيْرِ الْحَثِيثِ وَمَنٍّ يُبْطي
تسَاوِى عَلى وَرْدِ الرَّدى كل وَارِد فَلَمْ يُغْن رَبُّ السَّيْفِ عَنْ رَبَّة القِرط[٦]

([٤]) قدامه بن جعفر: نقد الشعر، ت: كمال مصطفي، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٩م، ص٤٩:٥٠.

([٥]) د. عبد الرشيد عبد العزيز سالم: شعر الرثاء العربي واستنهاض الهمم، ط١، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٢م، ص٧.

([٦]) الإحاطة: ت: محمد عبد الله عنان، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ج٣، ص ٣٩١.

نحس في هذه الأبيات بمرارة الفقد والحرمان التي تعتري ابن الخطيب في فقده لوالده، وبها روح التسليم بقضاء الله، وأن الموت واجب محتوم على كل إنسان، لا فرق بين غني ولا فقير في الموت، فكل إنسان له ساعة يشد فيها الرحال إلى العالم الآخر، وأن ذلك قدر لا مفر منه.

وما أصعب الرثاء حينما يرثي الأب ابنه، يكون الأمر أشد وأصعب، ويتمنى الأب أن يحل محل ابنه، ولكن هيهات فإن الموت لا يفرق بين كبير وصغير بين الأب والابن، فهذا الشاعر الوزير ابن الجياب يرثي ولده أبا القاسم، يقول(من الطويل):

هو البَيْن حتما لا لعل ولا عسى فما بال نفسي لم تُفِض عنده أَسى
وما لفؤادى لَمْ يَذُب مِنْهُ حَسْرَةً فَتَبا لِهَذَا الْقَلْبِ سَرَعَان مَا قَسَا
ويا لجفوني لاَ تَفِيضُ مَوْردًا مَنْ الدَّمْعِ يهْمي تَارَةً وموزّسا
وما للسانى مُفْصِحًا بِخِطَابِهِ وما كَانَ لَوْ أَوْفِى بِعَهْدِ لِيَنْبسا
أَمِنَ بَعْدَ مَا أودِعَتْ روحى فِي الثَّرَى ووسّدت مِني فَلَذة الْقَلْبِ مُرْمسا
وبعد فراق ابني أبي القاسم الذي كساني ثوب الثَّكل لا كان مُلبسا[٧]

يفتتح الشاعر قصيدته بحقيقة واقعية وهي أن الموت حتمًا وفرضًا على كل إنسان، ويركز الشاعر على ضمير المتكلم في قصيدته؛ ليبين أثر المصيبة على نفسه وحياته، واختار ابن الجياب حرف السين رويًا لقصيدته، والذي يفيد التنفيس، ثم اتباعه بألف المد ذلك الحرف الهوائي والذي يدل على الحالة النفسية للشاعر نتيجة الألم من فقده لابنه، وقد استطاع أن يرسم صورة صادقة عن فقدانه لولده، يحاول جاهدًا أن يدفع الموت عنه، ولكن قدر الله نافذ تخضع له كل البشر. فهو يقول:

فَلَوْ أن هَذَا الْمَوْت يَقْبَلُ فديةً حَبَونَاهُ أَمْوَالًا كِرَامًا وَأَنْفُسا

---

(٧) الإحاطة: ج٤، ص١٣٥.

فهو يتمنى أن يقبل الموت أحدًا غير ابنه ورسم لنا الشاعر ذلك من خلال استخدامه للمفردات التركيبية(حبوناه) والتي تدل على شدة المبالغة في العطاء؛ لاجتناب الموت ثم يأتي في البيت التالي، حيث يقول:

ولكنه حُكْم مَنْ الله وَاجِب يُسَلم فِيْهِ مَنْ بِخَيْر الْوَرى ائتَسَى

إن المتوقع موت الآباء قبل الأبناء، ولكن حدث الموت لا يفرق بين شيخ ولا شاب، فقد وقعت هذه المصيبة على ابن الجياب وهو في أرذل العمر، إن رثاء الأبناء بهذه الصورة هو" شعر ذاتي صرف، يعبر الشاعر فيه عن خلجاته الداخلية"[٨]. فيقول ابن الجياب:

فَيَا رَحْمَةً لِلشَّيْبِ يبْكي شبيبةً قِيَاس لعمري عَكْسُهُ كَانَ أقيسا

في كل بيت من أبيات القصيدة يعبر فيها ابن الجياب عن مأساته لفقده ابنه، فيقول:

ثَبَتُّ لَهَا صبرًا لِشِدَّةِ وَقْعِهَا فَمَا زلزتُ صبري الْجَمِيل وَقَدَ رَسَا

فاستخدامه للفعل(ثبتُّ) يدل على شجاعته وصموده أمام تلك المصيبة الواقعة عليه، وقد قدم الجار والمجرور(لها) ليؤكد اختصاصه بهذه المصيبة، وإنه لن يذكرها صراحة مرة أخرى لشدة وقعها عليه، وصرح بقوله(وما زلزلت) نفى بما فهو لا يضطرب من تلك المصيبة ثم جاء بـ(قد) التي تفيد التحقيق فصبره راسخ كرسوخ الجبال، ثم يدعو له في نهاية القصيدة بالرحمة والعفو والمغفرة، ويتمنى أن يجمع الله شملهما في جنة العلا. يقول:

تغمدك الرَّحْمَنُ بِالْعَفْوِ والرضا وَكَرَمَ مَثْوَاك الْجَدِيدِ وقدَّسا

وَأَلَّف مِنَّا الشَّمْلِ فِى جُنَّة الْعُلَا فَنَشْرَب تَسْنِيمًا ونلبس سُنْدُسا

---

(٨) د. مخيمر صالح موسى: رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص١٧١.

أما ابن رشد الفهرى[٩] فإنه يرثي ابنًا نجيبًا له ثكله بغرناطة، يقول(من الطويل):

شَبَابٌ ثوى شَابَتْ عَلَيْهِ الْمُفَارِقُ وَغُصن ذَوي تَاقَتْ إِلَيْهِ الحدايق
عَلَى حَين رَاق النَّاظِرِين بِسَوْقِهِ رَمَته سِهَامٌ لِلْعُيُونِ رواشق
فَمَا أَخْطَأت مِنْهُ الْفُؤَادَ بعمْدها فَلاَ أَبْصَرَتْ تِلْكَ الْعُيُونِ الرَّوانق
وَحِين تَدَانى لِلْكَمَالِ هِلَالُه أَلَمَّ بِهِ نَقْصٌ وجَدَّت مواحق
إِلَى الله أَشْكُو فَهو يُشْكَى نوازعًا عِظامًا سطاها للعِظام عوارِق

ولا مِثْلُ فُقْدَانِ البنيّ فَجِيعَةٌ وَإِنْ طَالِ مَا لَجَّتْ وَجِلَّتْ بوايق[١٠]

فكل كلمة في قصيدته تدل على مدى الحسرة التي تعتري قلبه، ويقسم بالله أن حياته لا قيمة لها من بعد فقد ابنه وأنها قد تغيرت، ثم يناديه بعد ذلك باسمه؛ يقول:

مُحَمَّدُ إن الصَّبْر صَبْرٌ وَعَلْقَمٌ عَلَى أَنَّهُ حُلْو الْمَثُوبَةِ سَابِق

يناديه باسمه(محمد) ويحذف أداة النداء لقربه إلى قلبه، ثم يؤكد على أن الصبر على تلك المصيبة الواقعة عليه مر كالحنظل، ولكنه في نفس الوقت مثوبة من عند الله لمن يصبر ويحتسب فهو فى البيت متأثر بالآية القرآنية، يقول الله عز وجل: "**سلامٌ عَليكمُ بمَا صَبرتم فَنِعم عُقبي الدَّارِ**"[١١]. ويتفق ابن رشيد الفهري مع ابن الجياب في فكرة أنهما السابقان إلى الموت بدلا من ابنيهما، فيقول الفهري:

وَقَدَ كَانَ ظنِّي أَنَّنِي لَك سَابِقٌ فَقَدْ صَارَ علمي أَنَّنِي بِكَ لاَحَق

---

(٩) محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن إدريس بن سعيد بن مسعود بن حسن بن محمد بن عمر بن رُشيد الفهري، من أهل سبتة، يكني بأبي عبدالله ويعرف بابن رُشيد، توفي بمدينة فاس سنة ٧٢١هـ.

(١٠) الإحاطة: ج٣، ص١٤١.

(١١) الآية ٢٤ من سورة الرعد.

ثم يختم مرثيته بالدعاء له بالسقيا والرحمة ومشاركة عناصر الطبيعة(الشمس– الماء– البرق– الحمام) في رثائه لابنه. لم يشكل رثاء الأبناء في كتاب الإحاطة ظاهرة فنية، لم أجد إلا القصيدتين السابقتين، وهما تنتميان إلى عصر مملكة غرناطة. ولكن في خضم حديثنا عن رثاء الأبناء تلاحقنا العديد من القصائد في ذلك سواء أكان في الأندلس أم في المشرق. ومن تلك القصائد عينية أبي ذؤيب الهذلي، فيقول(من الكامل):

أَمِنَ المُنُونِ وَرَيْبَهَا تَتَوَجَّعُ وَالدَّهرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[١٢]

تمثل القصيدة شحنة عاطفية عارمة في رثائه لأبنائه وقد استهلها بالاستفهام" بكل ما يحمله هذا الاستفهام من المرارة والإحساس بالخيبة"[١٣]. وهذه المأساة تذكرنا بمأساة ابن الرومي في داليته الحزينة في رثاء ابنه محمد، يقول(من الطويل):

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدى فجودا فقد أودى نظيركما عندى
توخى حمام الموت أوسط صبيتي فلله كيف اختار واسطة العقد[١٤]

وهذه القصيدة بها صدق تام وتجسيد لعاطفة الشاعر، وتعد من أروع القصائد في تراثنا العربي. وإذا انتقلنا إلى الأندلس نجد ابن عبد ربه والمعتمد بن عباد، وإذا تحدثنا عن ابن عبد ربه نجد أن الرثاء في شعره على الرغم من قلته فإننا نجد فيه صدق العاطفة، وعمق الإحساس، لقد خص ابن عبد ربه قصائده في الرثاء لابنيه، وقد فقد اثنين من أبنائه أحدهما مات طفلاً والآخر مات شابًا كبيرًا، وما

---

(١٢) ديوان الهذليين: ت: أحمد الزين، محمود أبو الوفا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ج١، ص١.

(١٣) د. محمد أحمد عدنان: مجلة الموقف الأدبي" قراءة في عينية أبي ذؤيب الهذلي"، العدد ٢٩١، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٥م، ص١٥.

(١٤) ابن الرومي(الديوان): ت: حسين نصار، ط٣، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٣م، ج٢، ص٦٢٤.

أصعب لحظات الشاعر عندما يرثي طفلًا له، وهذا ما أكده ابن رشيق القيرواني عندما قال:" ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلًا، أو امرأة؛ لضيق الكلام عليهما وقلة الصفات"[١٥]. ومن الأبيات التي يرثي فيها ابن عبد ربه ابنيه؛ نحو قوله(من المنسرح):

واكبـــدا قـــد تَقَطَّعـــتْ كبـــدي وحرقتهـــــا لـــــواعج الكمـــــد
مـــا مـــات حـــيَّ لميّـــتٍ أســـفًا أعـــذر مـــن والـــدٍ علـــى وَلَـــدِ[١٦]

وفي موضع آخر يقول" في طفل أصيب به"(من الطويل):

على مِثلها مِنْ فجعةٍ خانَني الصّبرُ فـــراقُ حبيـــبٍ دونَ أوبتِـــهِ الحشْـــرُ
ولـي كبـدٌ مشـطورةٌ فـي يـد الأسـى فتحـتَ الثـرى شـطرًا وفـوق الثـرى شـطر
يقولـونَ لـي صـبِّرْ فُـؤادَكَ بَعْـدَهُ فقلـتُ لهـم: مـا لـي فـؤادٌ ولا صـبرُ!
فُريخٌ من الحُمر الواصل ما اكتسى من الرِّيشِ حتى ضمّهُ الموت والقبرُ[١٧]

وفي قصيدة أخرى يرثي ابنه أبا بكر، فيقول ابن عبد ربه(من البسيط):

لا بيـتَ يُسْـكَنُ إلا فـارق السَّـكنا ولا امْـــتلا فَرَحًـــا إلاّ امْـــتلا حَزْنـــا
لهفـي علـى مَيّـتٍ مـات السَّـرور بـه لـــو كـــان حَيًّـــا لأحيـــا الـــدِّين والسُّـــننا
واهًـــا عليـــك أبـــا بكـــرٍ مُـــرَدَّدَةً لـــو ســـكَّنتْ ولهًـــا أو فَتّـــرتْ شـــجَنا
إذا ذكرتُـــكَ يَوْمًـــا قُلـــت: واحَزنـــا ومـــا يَـــرُدُّ علـــيَّ القـــولُ: واحَزنـــا؟[١٨]

لقد اتسمت الأبيات في رثاء ابن عبد ربه لابنيه بالتلقائية؛ لأنها تصدر من قلب جريح يتمزق على فراق ابنيه، وقد عبر عن أحاسيسه الذاتية وتفجعه من الفراق،

([١٥]) ابن رشيق القيرواني: العمدة، ج٢، ص٨٤٣.

([١٦]) أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي(الديوان): ت: د. محمد رضوان الداية، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٦١.

([١٧]) نفسه: ص٦٧.

([١٨]) ديوان ابن عبد ربه: ص١٦٧.

وتعجز كلماته عن التعبير في وفاة طفله يصعب أن يعبر عن مناقبه، ولكن في رثائه لابنه أبي بكر تحدث عن مناقبه، وخلع عليه الصفات الحميدة، فالسمة الأساسية التي تميز رثائه لابنيه الحزن المتواصل والدموع المتجددة لتلك الفجيعة. أما إذا تحدثنا عن المعتمد بن عباد فقد رسم لنا صورة عزائية في فقده لابنيه، فيقول(من الطويل):

يقولونَ صبْرًا لا سبيل إلى الصَّبْرِ سأبكى وأبكى ما تطاول بي عُمْرِي
هوى الكوكبانِ الفتحُ ثم شقيقُهُ يزيدُ فهل عند الكواكب من خُبْرِ
ترى زُهْرهَا في مأتمٍ كلَّ ليلةٍ تُخمَّشُ لهفًا وسْطَهُ صفحةُ البدرِ
ينحن على نجْمينِ أُثكلتُ ذا وذا وأصبرُ ما للقلب في الصبر من عُذْرِ[١٩]

إن الشعور المسيطر على هذا المشهد هو الحزن والحسرة، نجد أن الملك ابن عباد قد نزلت عليه محن الدهر من قهر وذل وأسر والأشد مقتل أبنائه، يستهل قصيدته بالفعل(يقولون) وكأننا نرصد مشهدًا جماعيًا يتشارك فيه الجميع لمواساة المعتمد، وقد جاء بالفعل للمضارع للدلالة على التجدد والاستمرار الحزين في نفوس المعزين، ويرد عليهم الشاعر بقوله:(سأبكى وأبكى) فالسين تفيد التسويف ويستحضر الشاعر البكاء دائمًا فلا يربطه بزمن محدد، إنما حزنه في الحاضر والمستقبل معًا. لقد جعل المعتمد مظاهر الطبيعة تتشارك معه في المشهد العزائي، ويصور السماء وكأنها في مأتم تقدم كل ما تملكه لتصوير المشهد وظهر ذلك جليًا في استخدام الشاعر للدلالات الحزينة في قوله:(هوى الكوكبان- ترى زهرها في مأتم- تخمش لهفًا- ينحن على نجمين)، إن الحزن هو العاطفة المسيطرة على أجواء

---

(١٩) ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية: ت: د. أحمد أحمد بدوي، د. حامد عبد المجيد، أشرف عليه وراجعه: د. طه حسين، ط٣، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٠٥:١٠٦.

الأرض والسماء، وهذه المشاهد تثير في نفسية المعتمد آهات وزفرات حزينة على فراق أبنائه. ولكن نجد موقفًا مختلفًا تمامًا عن هذه المشاهد التي تفيض بالحسرة والحزن، هذا الموقف عند ابن سارة الشنترينى[٢٠] في رثائه لابنته؛ فيقول (من الوافر):

أَلا يا موتُ كُنت بنا رؤوفا فجدَّدت السُّرور لنا بزَوْرَهْ
حَمِدنا سعيك المشكور لمَّا كفَيْت مؤنة وستَرْت عوْرَهْ
فأنكَحنا الضَّريح بلا صِداق وجهَّزنا العرُوس بغير شورَهْ[٢١]

هذه الأبيات تعد نمطًا جديدًا من الرثاء فيه شدة وغلاظة الجاهلية ولم ترق ألفاظه، فتكشف جانبًا حزينًا في حياة الشاعر، لقد عانى ابن سارة مرارة الفقر والحرمان، واشتغل بحرفة الوراقة، ولكنه لم يكن ميسور الحال، يقول عنه الفتح بن خاقان:" أعان على نفسه الزمان، واستجلب لها الخمول والحرمان، فلا يطير إلا وقع، ولا يرقع خرقًا من حاله إلا خرق ما رقع"[٢٢].

فالملاحظ أن رثاء المرأة كان قليلًا مقارنة برثاء الأبناء من الذكور، ورثاء ابن سارة السابق يعد نوعًا مختلفًا فقد" جاء في قالب السخرية وهي ظاهرة جديدة في شعر

---

(٢٠) عبدالله بن محمد بن سارة البكري، شنتريني، سكن ألمرية وغرناطة، وكان أديبًا ماهرًا، وتوفي سنة ٥١٩هـ، وله شعر يبرز فيه تصويره لحال الدنيا وصراع الإنسان فيها؛ فيقول:

بنو الدنيا بجهل عظموها فجلت عندهم وهي الحقيرة
يهارش بعضهم بعضًا عليها مهارشة الكلاب على العقيرة

ينظر نفح الطيب: ج٤، ص١١٧.

(٢١) الإحاطة: ج٣، ص٤٤٠.

(٢٢) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ت: د. حسين يوسف خريوش، ط١، مكتبة المنار للطباعة والنشر، الأردن، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٨٠٩:٨١٠.

الرثاء"[٢٣]، ولم يوفق الشاعر في رثائه فكيف يجمع بين مشاعر الفرح والحزن، وكيف تصبح الميتة عروسًا تزف إلى القبر. ويطل علينا الشاعر أبو عبد الله الرشاش يرثي عبد الملك بن حبيب[٢٤]، فيقول الرشاش(من الطويل):

لئن أخذت منا المنايا مُهَذَّبا وقد قل فيها من يُقال المهذَّب

لقد طاب فيه الموت والموت غِبْطة لمن هو مغمُوم الفؤاد مُعذب[٢٥]

إن الموت أصبح أمرًا محبوبًا وسعادة؛ لأن فيه طريقًا للقاء الموتى، وقد عبر عن ذلك بقوله (طاب فيه الموت) دلالة على الفرحة بلقاء المتوفي. وبهذا كان الرثاء الخاص دليلًا على صدق العاطفة، وعمق الإحساس؛ وذلك لقرابة المتوفي للشاعر كأن يكون ابنًا، أو أبًا، أو صديقًا، وهنالك العديد من البواعث التي تضفي على الرثاء الخاص، منها: الإحساس بقرب الأجل، واقتراب المشيب، والعظة والتفكر فى الموت[٢٦]. فالرثاء الخاص يعبر بصدق عن عاطفة ملتهبة، التي تتمثل فى فقدان شخص عزيز لن يعود مرة ثانية، فالأسى يلتهم قلب الشاعر ويمتليء بزفرات الأنين والحزن.

ب- الرثاء الرسمي:

هذا النوع من الرثاء يتعلق برثاء من لهم سلطة سياسية في الدولة؛ كأن يكون أميرًا، أو وزيرًا وما أكثر الأمثلة على ذلك النوع من الرثاء؛ لأن الشعراء يعدون ذلك

([٢٣]) فدوى عبدالرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٤٩.

([٢٤]) عبدالملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن جلهمة بن العباس بن مرداس السلمي، وتوفي سنة ٢٣٩هـ.

([٢٥]) الإحاطة: ج٣، ص٥٥٢.

([٢٦]) يراجع د. مقداد رحيم: رثاء النفس في الشعر الأندلسي، جهينة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص٦٧:١٣٤.

تقربًا إلى ذوي السلطة، ولقد" تنوعت صور تعبير الشعراء عن حزنهم ولوعتهم لفقد أحد ملوكهم أو أمرائهم، بما يمثلونه من سلطة دينية ودنيوية، فصور الشعراء الحزن وفداحة الخبر وشدة وقعه عليهم"[٢٧]. ومن أمثلة الرثاء الرسمي في كتاب الإحاطة: ما أنشده ابن الجياب على قبر السلطان أبي الوليد إسماعيل ابن يوسف، حيث يقول ابن الجياب (من الطويل):

أَيا عَبْرَةَ الْعَيْنِ امزجي الدَّمْعِ بِالدَّمِ ويــا زَفْــرَةَ الْحُــزْنِ احْكُمــي وَتَحَكَّمــي
ويــا قُلِــب ذُب وَجْـدًا وَغَمًّـا ولوْعـةً فَـإِنّ الْأَسَـى فَـرْضُ عَلـى كَـلّ مُسْـلِمِ
ويــا سَـلْوَةَ الْأَيَّـام لاَ كَنـتِ فَابْعُـدِي إِلَـى حَيْـث أَلْقَـتْ رَحْلِهَـا أَمْ قَشْـعَمِ [٢٨]

فيستهل ابن الجياب قصيدته بالبكاء ويأمر دمع عينيه أن تنزل، ويختلط الدمع بالدم حزنًا على فراق السلطان، فاستخدامه للنداء في ثلاثة أبيات متتالية(أيا عبرة – ويا زفرة – يا قلب – يا سلوة الأيام) كل هذه النداءات تخلق جوًا من الاستسلام بالواقع وحتمية الموت، فهو يطالب كل أعضاء جسده أن تحزن لفراق السلطان، وأن الأسى أصبح فرضًا على كل مسلم بالأندلس، وجاءت الباء ملازمة للدم لتفيد ملازمة الدمع للدم، وقد أثار اللون الأحمر شدة الحزن على السلطان، ويضرب ابن الجياب أمثلة عديدة ليؤكد فيها على سطوة الموت وجبروته، فهو يذكرنا بالأمم السابقة أين هم الآن، ويصف سطوة الموت على الصحابة – رضوان الله عليهم–.

أما الشاعر أبو بكر بن سوار فقد أنشد قصيدة على قبر يوسف بن تاشفين أمير المرابطين[٢٩]، يقول الشاعر(من الكامل):

([٢٧]) د. فاطمة مفلح العبد اللات: آخر دموع غرناطة " شعر الرثاء في عصر بني الأحمر"، ط١، دار الثقافة والإعلام، الشارقة، ٢٠١٢م، ص٧٧.

([٢٨]) الإحاطة: ج١، ص٣٩٥.

مِلْـك الْمُلُـوك ومـا تَرَكْـتَ لِعَامِـلٍ عَمَـلًا مَـنْ التَّقَـوى يُشَـارِك فِيْـهِ
يَـا يُوسُـف مَـا أَنْـتَ إلَّا يُوسُـف وَالْكُـلّ يَعْقُـوب بِمَـا يطويـه
اسـمع أميـر المـؤمنين وناصـر الـ ـدين الـذى بنفوسـنا نُفديـه
جوزيـت خيـرا عـن رعيتـك التـي لـم تـرض فيهـا غيـر مـا يُرضـيه[٣٠]

يستهل الشاعر قصيدته بنداء للملك وقد حذف أداة النداء؛ وذلك لقربه إلى قلبه، ثم يصف مشاعره الحزينة لوداع أمير المرابطين، ويجعل مظاهر الطبيعة كلها في حزن شامل عليه؛ يقول:

وَإِذَا سَـمِعْت حَمَامَـةً فِـى أيْكَـة تبكـى الهـديل فَإِنَّهَـا تَرْثِيـه

ثم يختتم قصيدته بعد ذلك بتهنئة للأمير علي بن يوسف بن تاشفين، وأنه أسد مثل أبيه، وهو وارث الملك؛ يقول:

إِذَا هزبـر الْغَـابِ صَـرَّى شِـبله فِـي الْغَـابِ كَـانَ الشِّـبْلُ شِـبْه أَبِيـهِ
وَإِذَا عَلَـيَّ كَـانَ وَارِث مِلْكِـه فَالسَّـهْم يُلْقَـى فـي يَـدَى بارِيـه

إن الشعراء ينظمون هذه القصائد بعيدًا عن عاطفة صادقة، إنما كانت فيه مصلحة بالدرجة الأولى وأداء للواجب السياسي[٣١]. أما ابن عبد الصمد فإنه يرثي المعتمد بن عباد صبيحة يوم عيد الأضحى، يقول ابن عبد الصمد(من الكامل):

مِلْـكُ الْمُلُـوكِ أَسَـامُع فأنـادى أَمْ قَـدْ عَـدَتك عَـنْ السَّـمَاعِ عـوادي؟
لَمَّـا خَلَـتْ مِنْـك الْقُصُـورُ فَلَـمْ تَكُـنْ فِيهَـا كَمَـا قَـدْ كَنـتَ فِـي الْأَعْيَـادِ
أَقْبَلَـتُ فِـي هَـذَا الثَّـرَى لَـك خاضـعًا وتَخـذْتُ قَبْـرَك مَوْضِـع الْإِنْشَـادِ[٣٢]

---

(٢٩) يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تومورت بن منصور بن مصالة بن أمية الصنهاجي اللمتوني، يكني بأبي يعقوب ويلقب بأمير المسلمين، توفي بمراكش سنة ٥٠٠هـ.

(٣٠) نفسه: ج٤، ص٣٥٣.

(٣١) ينظر د. فوزي عيسى: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٧م، ص١٦٦:١٦٧.

لقد كان ابن عبد الصمد صادق الإحساس، فقد خر فوق قبر المعتمد بن عباد يلثم التراب، وقد أثرت الظروف المكانية والزمانية في نفسية ابن عبد الصمد، فالزمان وهو صبيحة يوم عيد الأضحى، والمكان قبر المعتمد بن عباد، وهذا المكان وحده يثير في نفسية الشاعر ذكريات حزينة، فيستهل قصيدته بالنداء(ملك الملوك) وقد حذف أداة النداء؛ لقرب الملك منه ومنزلته الرفيعة لديه، وهذا يدل على صدق إحساس الشاعر، فقد كان وفيًا لممدوحه حيًا وميتًا، صورة من صور التداخل بين الزمنين الماضي والحاضر، الماضي المتمثل في العيش في كنف المعتمد بن عباد حيث كان ملكًا على إشبيلية، ولكن الحال لم يدم طويلًا وأصبح المعتمد أسيرًا ثم دُفن بعيدًا عن وطنه وأهله.

الجدير بالذكر أن قصيدة ابن عبد الصمد تعد من الرثاء الرسمي للملوك، وفي الوقت نفسه رثاء لمملكة إشبيلية، حيث ضاعت بسجن المعتمد بن عباد ونفيه إلى أغمات بالمغرب، ويتداخل زمنان في القصيدة الماضي بكل ملامح البهجة وقد عبرت القصيدة عن ذلك(ملك الملوك– القصور) وجاء الزمن الحالي في أسر ابن عباد ووفاته فى محبسه، وقد عارض ابن عبد الصمد قصيدة ابن اللبانة في رثاء دولة بني العباد، فيقول(من البسيط):

تبكي السَّمَاء بِمزنٍ رَائِحٍ غادي عَلَى البهالَيْل مَنْ أَبْنَاءِ عِبَاد[٣٣]

ولكن الوقت مختلف بالنسبة للقصيدتين؛ فقصيدة ابن اللبانة قالها عند أسر ابن عباد سنة ٤٨٤هـ، ولكن ابن عبد الصمد قالها بعد وفاة المعتمد وخر على قبره يلثم التراب،" وأتاحت مأساة المعتمد أن نرى صورة متكاملة لتجربة ذاتية، لملك شاعر

---

(٣٢) الإحاطة: ج٢، ص١٢٠.

(٣٣) ابن اللبانة الداني(الديوان): ت: د. محمد مجيد السعيد، ط٢، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٥٦.

يسجل مأساته بنفسه لتضع هذه الصورة بجوار تلك التي رسمها شعراؤه الأوفياء لنرى كيف يكون الصدق الفني على درجات متفاوتة"[٣٤]. أما ابن الخطيب فإنه يرثي جده الملك أبا الحجاج يوسف الأول؛ يقول(من الطويل):

نَبِيتُ عَلَى عِلْمِ بغائلة الدَّهْرِ وَنَعْلَمُ أن الْخَلْقَ فِي قَبْضَة الدَّهْرِ
ونركن لِلدُّنْيَا اغترارًا بِقَهْرِهَا وَحَسْبُك مَنْ يَرْجُو الْوَفَاءِ مَنْ الْغَدْرِ
ونُمْطل بِالْعَزْمِ الزَّمَانِ سَفَاهَةً فَيَوْمٌ إِلَيَّ يَوْم ، وَشَهْرٌ إِلَى شَهْر
وَتُغْرى بِهَا نَفْسي الْمَطَامِع وَالْهوى وَنَرْفُضَ مَا يَبْقي ضيْعةَ الْعُمْرِ
هُوَ الدَّهر لاَ يُبْقى عَلَى حدثانه جَدِيدُ ولا يَنْفَكُّ مَنْ حَادِث نُكْر[٣٥]

ابن الخطيب يستهل قصيدته بفعل الدهر، وأن الخلق كلها في قبضة الدهر وعلينا أن نتأمله، ويركز ابن الخطيب على عنصر الزمن بدواله المختلفة من(الدهر –يوم– شهر – الزمان) وذلك تأكيدًا منه على فعل الدهر بالإنسان،" وهذا التأمل مبنى على صراع الإنسان مع الدهر واغتراره بالدنيا وانشغاله بما يغني وإعراضه عما يبقى"[٣٦]. وفيما يتعلق برثاء الوزراء والعلماء فلنا على ذلك أمثلة كثيرة، يقول ابن الجياب(من الطويل):

أَيا زَفْرتى زيدى ويا عَبْرتى جودى عَلَى فَاضِل الدُّنيَا عَلَى ابْنَ مَسْعُودِ
عَلَى الشَّامِخَ الْأَبْيَاتِ فِي الْمَجْد وَالْعُلَا عَلَى السَّابِقِ الْغَايَاتِ فِي الْبَأْسِ وَالْجودِ
عَلَى غُرَّة الْعَصْرِ التي جَمَعَتْ إِلَى مَهَابَة مَرْغُوب طَلَاقَةِ مَوْدُودِ
عَلَى مَنْ لَهُ فِي الْمِلْكِ غَيرُ مُنَازَع وزراة مَيْمُون النقِيبة مَحْمُودِ

([٣٤]) د. سعد إسماعيل شبلي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف، دار النهضة المصرية، الفجالة، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٣٣٩.

([٣٥]) الإحاطة: ج١، ص٣٧٩.

([٣٦]) د. حسناء بوزيتة الطرابلسي: حياة الشعر في نهاية الأندلس، ط١، دار محمد علي الحامي، صفاقس، مركز النشر الجامعي، تونس، ٢٠٠١م، ص٣٢٧.

*

وَمَـــن كَعَلِـــيٍّ ذي الشَّـــجَاعَةِ والرِّضـــا لإِصْـــراخ مَـــذْعُور وَإِيـــوَاء مَطْـــرُودِ؟
وَمَـــن كَعَلـــيٍّ ذي السَّـــمَاحَة والنَّـــدى لِإِسْـــبَاغ إِنْعَـــام وَإِنْجَـــازِ مَوْعُـــودِ؟
وَمَـــن كَعَلـــيٍّ للـــوزارة قائمًـــا عَلَيْهَـــا بِتَصْـــوِيبِ عَلَيْهَـــا وتصْـــعيدِ؟[٣٧]

يبدأ ابن الجياب قصيدته في رثاء علي بن مسعود الوزير، بنداء وهمي(أيا زفرتي زيدي – ويا عبرتي جودي)، فهو يستجمع كل طاقاته ليعبر عن مدى حزنه لفقدان هذا الرجل، فالنداء حاجة إنسانية ملحة تتعين ماهيتها من خلال ماهية النداء والحالة السياقية للمنادى، وفي البيت المنادى هي الدموع فيكشف عن حاجة الإنسان لها، فنداء الشاعر للعبرة، وتنكيرها يفيد كثرة دموعه وتلعب الصيغ التكرارية دورًا مهمًا في بنية القصيدة؛ فيكرر الشاعر حرف الجر(على) في أربعة أبيات متتالية،(على الشامخ – على السابق – على غرة – على من له) وهذا التكرار وتقديم الجار والمجرور، دلالة على اختصاص هذا الرجل بمكانة رفيعة في قومه؛ فهو غرة العصر، وله في الوزارة موقع محمود، ثم يكرر الشاعر لفظ(ومن كعليٍّ) وبها تكرار لاسمه حوالي سبع مرات في القصيدة، ونستشرف من خلال تلك الأبيات محاسن هذا الوزير من: شجاعة، وسماحة، وحسن إدارة، وحسن سياسة وأنه واصل للرحم، ثم يختتم الشاعر قصيدته بالدعاء له أن يرحمه الله،" فالتكرار في القصيدة إلحاح على جهة مهمة يعني بها الشاعر، فالتكرار سلط الضوء على نقطة معينة في القصيدة دون سواها"[٣٨]. وأنشد أبو عبد الله بن جزي قصيدة في رثاء ابن الجياب يقول ابن جزي(من الطويل):

([٣٧]) الإحاطة: ج٤، ص٧١.

([٣٨]) د. نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ص٢٧٦.

أَلَـمْ تَـرَ أن الْمَجْـد أَقْـوَتْ معالمـه فأطنابـــه قَـــدْ قَوَّضـــت دَعَائِمُـــه
هوى مَنْ سَمَاء المعلوات شهابها وخانـــت جَـــوَادُ الْمَكْرُمَـــاتِ قَوَائِمـــه
وثلَّـت مَـنْ الْفَخْـرِ المشيد عروشـه وَفُلّـــت مَـــنْ الْعِـــز الْمَنيـــع صـــوارمه
وَعُطِّـلَ مـن حَلـى الْبَلَاغَـةِ قُسُّـها وعُـــرِّى مَـــنْ جَـــود الْأَنَامِـــلِ حاتمـــه
أَجَـل إنِـه الْخَطـب الـذى جَـلَّ وَقْعُـهُ وَثلَّـمَ غَـرْب الـدين وَالْعَلَـم هاجمـه[٣٩]

يفتتح ابن جزي قصيدته بحقيقة يلقيها أمام المتلقي، وهي أن حال الدنيا قد تغير بموت ابن الجياب؛ فقد ثل الفخر من عروشه، وأظلم الصباح بفقدان ذلك الرجل، ثم يكرر اسمه في ستة أبيات متتالية(لبيك عليًا) ليبين فضله وأثر علمه؛ فهو فضل في كل بلاغة، ورجل كريم، ويقوم الليل، ويصوره بحاتم الطائى في كرمه، وقس بن ساعدة في بلاغته، برع ابن جزي في تصوير الصراع النفسي الذي يدور بداخله من فقده لابن الجياب فنفسه في حالة حرب وسلم في آن واحد، وآثر استخدام أفعال(أصبر – أحارب– أهديك) للدلالة على تأثير الحزن على نفسية ابن جزى، وأيضًا استخدم الفعل(هوى) ولم يقل سقط وذلك به دلالة على علو مكانته، وأنه كان رمزًا من رموز الأندلس، وفي قوله(سأصبر مضطرًا) فالسين أفادت الاستمرارية في صبره فقد فزعه موت ابن الجياب وجعله في حزن متجدد، ولكنه يصبر على تلك المصيبة، حتى وإن كان مضطرًا إلى ذلك ومكرهًا عليه فالصبر يحتاج إلى مواجهة النفس بالمصائب التي تلحق بها ومن ثم القدرة على مواجهتها. وفي رثاء العلماء نجد أبا عبدالله بن الجنان[٤٠] يخاطب أولاد أستاذه المرثى سهل بن محمد؛ يقول ابن الجنان(من الطويل):

([٣٩]) الإحاطة: ج٤، ص١٤٩، ١٥٠.

([٤٠]) محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري أبو عبدالله، شاعر أندلسي عاش في القرن السابع الهجري وتوفي ببجاية سنة ٦٥٠هـ.

دعـونى وتِسْـكاب الـدُّمُوعَ السـوابك فــدعوي جَمِيــلٌ الصَّــبْرِ دَعْــوَةُ آفِــك
أَصْــبرٌ جَمِيــلٌ فِــي قَبِــيحِ حَــوَادِث خَلَعْــن عَلَــى الْأَنْــوَارِ ثَــوْب الْحَوَالِــكِ
تَنَكَّــرَت الــدّنيَا عَلَــى الــدِّين ضِــلَّة وَمَــنٍّ شِــيمة الــدّنيَا تنكُّــر فَــارِك[٤١]

إن موت سهل بن محمد فجيعة لم يصب الناس بمثلها، ولقد ربط الشاعر بين موت الشخصية الثقافية وبين حديث رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رضى الله عنهما – قال: سمعت رسول الله يقول:" إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا، اتحذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا"[٤٢]. صدق رسول الله(صلى الله عليه وسلم).

لقد رسم ابن الجنان صورة فقده لسهل بن محمد وبدأها وكأنه يخاطب مجموعتين من الناس؛ البعض يطلب منه أن يصبر وآخرين يشاركوه في حزنه، وقد عبر بلفظ(تسكاب الدموع) فالسكب يدل على الكثرة أما التسكاب فهي زيادة ومبالغة فى الحزن، وأعقبها بالدموع ولم يقل الدمع للدلالة على كثرة دموعه، وتلك الدموع ليست دموعًا عادية بل هي سوابك وتأتى قيمتها من قيمة الشخص المفقود.

وعبر في البيت الثاني بالاستفهام في(أصبر جميل) ويفيد التعجب ممن يدعوه إلى الصبر، فالصبر في حد ذاته جميل ولكن أعقبه بقوله(قبيح حوادث) فالنكبات والمصائب التي تمر بالإنسان متعددة جعلت من الأنوار المضيئة أثوابًا حوالكًا.

ج- الرثاء السياسي (رثاء المدن والممالك الزائلة):

([٤١]) الإحاطة: ج٤، ص٢٨٦، ٢٨٧.

([٤٢]) عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، حديث رقم ١٠٠، ص٣٨.

لقد نهج شعراء الأندلس نهج المشارقة في القصيدة الرثائية، ولكنهم تفوقوا عليهم في الرثاء السياسى؛ نظراً لأن الأندلس مرت بظروف سياسية متقلبة في عديد من عصورها؛ يقول إبراهيم ابن خلف[٤٣] (من المتقارب):

أَلَا مُسْـــعِدٌ مُنَجـــزٌ ذو فِطَـــن يبْكَـــي بِـــدَمْعٍ مَعِـــين هَـــتِن
جَزِيـــرَةَ أَنْـــدَلُسٍ حَسْـــرَةً لاَ غَالِـــبٍ مَـــنْ حَقُـــودِ الـــزَّمَنِ
وَيَنْـــدُبُ أطلالهـــا آسِـــفًا ويَرْثِـــي مَـــنْ الشِّـــعْرِ مَـــا قَـــدْ وَهْـــن
ويَبكـــي الأيـــام ويبكـــى اليتـــامي ويحكـــي الْحَمـــامِ ذَوَاتَ الشَّـــجَن[٤٤]

لقد لعبت التشكيلات الأسلوبية دورًا في القصيدة، نجد التكرار لحرف العطف الواو مع الأفعال المضارة(ويندب – ويبكى – ويشكو)، تلك الأفعال المضارعة تبين أثر ما حدث في الأندلس، ثم يكرر نفس حرف العطف مع الأفعال الماضية(وكانت رباطا – وكانت ملاذا – وكانت شجى)؛ ليبين ما كانت عليه جزيرة الأندلس، إن إحساس الشاعر في رثائه للأندلس" يصدر عن شعور وطني عميق، فنجد في رثائه صورة الوطن الأم، أو الجزيرة بمعناها العام"[٤٥]. وتتراءى لنا قصيدة ابن عبدون[٤٦] في رثاء دولة بني الأفطس، وتعد من القصائد التي تقترن بسرديات كبرى، أي بالسرد التاريخي لحيوات الدول؛ يقول ابن عبدون(من البسيط):

الـــدِّهْرِ يفجـــعُ بَعْـــد الْعَـــيْن بِـــالْأَثَرِ فَمَـــا الْبُكَـــاءُ عَلَـــى الْأَشْـــبَاحِ وَالصُّـــوَرِ؟

([٤٣]) إبراهيم بن خلف بن محمد بن الحبيب بن عبدالله بن عمر بن فرقد القرشي العامري، توفي سنة ٥٧٢هـ.

([٤٤]) الإحاطة: ج١، ص٣٦٦.

([٤٥]) د. فـوزي عيســى: فــي الأدب الأندلســي، ط١، دار المعرفــة الجامعيــة، الاســكندرية، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٨م، ص١١٤.

([٤٦]) الفقيه والكاتب والشاعر الكبير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون وزير بني الأفطس وكاتب دولتهم، توفي سنة ٥٢٠هـ.

أَنْهَـــاك أَنْهَـــاك لاَ آلُـــوك مَوْعِظَـــة عَـــنْ نَوْمِـــةٍ بَـــيْنَ نَـــاب اللّيـــث وَالظّفْـــرِ
فَالـــدَّهْرُ حَـــرْبُ وَإِنْ أَبْـــدَى مُسَـــالَمَة وَالْبَـــيْضُ وَالسُّـــمرُ مِثْـــلِ الْبِـــيضِ وَالسّـــمَرِ

*

بَنَـــى الْمُظَفَّـــرِ والأيـــام مَـــا بَرِحَـــتْ مَرَاحِـــل وَالْـــوَرَى فِيهَـــا عَلَـــى سَـــفَر
سُـــحْقًا لِيَـــوْمِكُمْ يَومًـــا ومـــا حَمَلَـــتْ بِمِثْلِـــهِ لَيْلَـــةً فِـــي سَـــالِفُ الْعُمْـــر
مَـــنْ للأَسَّـــرة أَوْ مَـــنْ للأعنّـــة أَوْ مَـــنْ للأَسِـــنَّة يهْـــدِيهَا إِلَـــى الثَّغْـــرِ ؟
مَـــنْ لليراعـــة أَوْ مَـــنْ للبراعـــة أَوْ مَـــنْ لِلسَّـــمَاحَةِ أَوْ لِلنِّفْـــعِ وَالضَّـــرَرِ ؟[٤٧]

إن ابن عبدون يستوحي الصورة التاريخية ويجعلها ماثلة في خيال المتلقي ويقدم نزعة سردية قائمة على الصراع بين الإنسان والدهر، فيسرد فيها الشاعر طغيان الدهر على الإنسان وما يلاقيه في حياته،" فبنية القصيدة يتحكم فيها الثابت السردي المعبر عن صيرورة الإنسان والكون في حالتي ملكه وقوته وجبروته وفقده وضعفه وهلاكه"[٤٨].

هذه القصيدة تناولها كثير من النقاد والأدباء بالتحليل والتعليق عليها، ويمكن تقسيمها إلى مجموعة من الأغراض التي تقودنا في النهاية إلى طريق واحد، وهو فعل الدهر بالإنسان وتحولات الزمن، يبدأ ابن عبدون قصيدته من البيت الأول إلى الثامن بتأملات عامة عن الدهر وفعله بالإنسان، ثم يسرد الشاعر سقوط عظماء الملوك قبل الإسلام أمثال: دارا والإسكندر ويزدجرد والنعمان ملك الحيرة، ثم يعرض للأحداث التي وقعت للمسلمين، ويقوم بعد ذلك بسرد لسقوط دولة بني الأفطس.

([٤٧]) نفسه: ج٤، ص٤٧: ٥١.

([٤٨]) د. محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص)، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٦م، ص١٥٥.

وقد تعددت دوال المكان في القصيدة، واستخدم الشاعر الاستفهام(أين) محاولة منه لمشاركة وجدانية للمتلقى، وتكرار الاستفهام يدل على حيرة داخل نفسيته، فتظل تبحث عن إجابة لتلك التساؤلات، فبداية القصيدة بلفظ الدهر تدل على إحساس راسخ لدى الشاعر ورؤيته الاعتبارية للحياة، ويدعو المتلقي لكي يشارك معه.

ويستخدم التشكيلات اللغوية في الوصول إلى هدفه، فيكرر ألفاظ(أنهاك – أنهاك) ثم تكرار كلمة الدهر ويشير لها عادة بالليالي، فالقصيدة بها تناص تاريخي يحشد مجموعة من الأحداث التاريخية والتي تؤكد ما يهدف إليه، والجدير بالذكر أن" المعرفة الخلفية المشتركة ضرورية، إذن، لإنتاج النص كما أنها ضرورية لاستقباله"[٤٩]. نرى الشاعر يحشد مجموعة من الأفعال التي تدل على الحزن والانكسار أمثال:(هوت – أردت – مزقت) كلها تحمل دلالات الخوف، وقد حاول الشاعر جاهدًا استخدام التاريخ لخدمة رأيه؛ ليؤكد ما يفعله الدهر بالإنسان ويثبت صحة رأيه الشخصي.

نالت قصيدة ابن عبدون شهرة واسعة ونالت إعجاب البعض ولم يُعجب بها البعض الآخر، من الذين لم يعجبوا بهذه القصيدة(غرسيه غومث)؛ حيث يقول:" لا نعرف شعرًا هو أبعد عن الإحساس الإنساني منها، إذ إنها سلسلة طويلة من الأبيات تدور حول معنى "أين الأُلى" يعدد ابن عبدون مصائب التاريخ البشري في أسلوب خال

([٤٩]) د. محمد مفتاح: دينامية النص تنظير وانجاز، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م، ص٤٧.

من حرارة الإحساس الصحيح، وهو لا يرمي من وراء هذا السرد إلا إلى إظهار مدى علمه"[٥٠].

ويرى المستشرق آنخل بالنثيا أن قصيدة ابن عبدون" هي قصيدة رصينة الصياغة إلا أنها فاترة الروح مدرسية المنهج"[٥١]، أما الدكتور الطاهر مكي فيقول عنها:" ليست قصيدة تثير كوامن المشاعر بقدر ما هي عرض موفق لعلم واسع مثقل بالزخارف والزينة"[٥٢]. والباحثة لا توافق على هذا الرأي، على الرغم من أن القصيدة بها سلسلة من الأحداث التاريخية، ولكنها في مكانها الصحيح استطاع من خلالها ابن عبدون أن يقودنا إلى ملحمة تاريخية، وسرده لهذه الأحداث التاريخية إنما هو تأكيد لصحة رأيه في فعل الدهر وجبروته، فاستيحاء تلك الصور التاريخية وجعلها ماثلة أمام المتلقي في صورة متآلفة مما يبين أثر الدهر وسطوته على الناس، ولو كانت كما يقولون فلماذا شرحها ابن بدرون(٥٦٠هـ) وسمى هذا الشرح(بكمامة الزهر وفريدة الدهر). ومن الذين أعجبوا بقصيدة ابن عبدون صاحب كتاب(المعجب في تلخيص أخبار المغرب)، يقول عنها:" قصيدته الغراء، لا بل عقيلته العذراء، التي أزرت على الشعر، وزادت على السحر، وفعلت في الألباب فعل الخمر، فخلت عن أن تسامى، وأنفت من أن تضاهي؛ فقل لها النظير وكثر إليها المشير"[٥٣].

---

(٥٠) إميليو غرسيه غومث: الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، ت: د.حسين مؤنس، ط٢، دار الرشاد، ٢٠٠٥م، ص٧٨.

(٥١) آنخل بالنثيا: تاريج الفكر الأندلسي، ت: د. حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص١٦.

(٥٢) د. الطاهر مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٢٤٨.

(٥٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ت: محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص١٢٨:١٢٩.

أما صاحب(قلائد العقيان) فيقول عنها:" تكبر المسامع، ويعتبرها السامع اشتملت على كل ملك قتل، وأشارت إلى من غدر منهم وضل"[٥٤]، أما الدكتور مصطفى الشكعة فيرى أن الشاعر" يسلك نهجًا جديدًا في بناء قصيدته من حيث استيحاء تجاريب الحياة، واستقراء أحداث التاريخ والاستفادة من دروسه وأخذ الحكمة من غيره، ولكن ابن عبدون لا ينسى صيغ التفجع يتبع الواحدة منها الأخرى، وأنات التوجع يوردها متتالية متوالية"[٥٥]. إن الصفات التي خلعها الشاعر على بني الأفطس إنما يمكن أن" تشي بآمال قومية علقها عليهم بوصفهم حماة الدولة بالسيف والقلم"[٥٦].

د- رثاء النفس والشعر المنقوش على القبور:

أود أن أشير أنني بدأت مبحث الرثاء بالرثاء الخاص وأختمه برثاء النفس، ولقد تعمدت ذلك فإنني أرى أن الرثاء بنوعيه(الخاص والنفس) من أقرب أنواع الرثاء إلى النفس البشرية، فمن منا لم يتأثر من فقد أب أو أم أو أخ، فكلنا نسبح فى ملكوت الله ونعترف بالمصير المحتوم الذي يقودنا في النهاية إلى مكان واحد، لا فرق فيه بين غني أو فقير، أو بين سادة وعبيد." إن رثاء النفس محاولة لمواجهة الذات بحقيقة الموت والفناء، وربما هو تعبير عن اللوعة والحسرة لفراق الأحبة مع الأمل والرجاء في رحمة الله وغفرانه، وقد يكون نوعًا من الاستسلام والاعتراف بالعجز أمام حتمية الموت"[٥٧].

([٥٤]) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان، ص٤٢.

([٥٥]) د. مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص٥٤٢.

([٥٦]) د. عبد الحميد شيحة: الوطن في الشعر الأندلسي "دراسة فنية"، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص١٥٢.

([٥٧]) د. فاطمة مفلح: آخر دموع غرناطة، ص١٣٣.

الإنسان حينما يشعر بدنو الأجل فإن مشاعره تهتز خوفًا ورهبة من الموقف،" ومن الطبيعي أن يندب الشعراء أنفسهم وهم يفارقون دنياهم من ورائهم إلى حفرة مظلمة، إنها ساعات يخرج المشيعون من حولهم وورائهم يحملون نعوشهم إلى قبورهم ويدفنونهم في لحودهم ويوارونهم التراب، ويعودون ليتم كل منهم دورته في حياته"[٥٨]. ويشتمل كتاب الإحاطة على أمثلة من رثاء النفس، ومنها: قصيدة للمعتمد بن عباد؛ يقول(من البسيط):

قَبْرٌ الْغَرِيبِ سَقَاك الرَّائِح الغادى ... حَقًّا ظَفِرْت بأشلاء ابْنَ عِبَادِ

بِالْحِلْمِ بِالْعِلْمِ بالنُّعمى إذَا اتَّصَلَتْ ... بِالْخِصْبِ أن أجدبوا بالرّى للصادي

بالطّاعن الضَّارِب الرَّامِي إذَا اقتتلوا ... بِالْمَوْتِ أَحْمَرَ بالضِّرغامة الْعَادِي

بِالدَّهْرِ فِى نُقِمْ بِالْبَحْرِ فِى نَعِم ... بالبدر فِى ظُلُم بِالصَّدْرِ فِى النَّادِي

نَعَمْ هُوَ الْحَقّ فاجاني عَلَى قَدَر ... من السَّمَاءِ ووافاني لميعادِ[٥٩]

هذه القصيدة رثي بها نفسه عندما أحس بدنو أجله، وأمر أن تكتب على قبره، فهو يستهل قصيدته بقوله (قبر الغريب) فيحكم على قبره بالغربة فهي غربة في الحياة والموت، ثم يدعو لقبره بالسقيا، تلك القصيدة يتداخل فيها زمنين الماضي / الحاضر؛ الماضي المتمثل في كون المعتمد ملكًا، أما الحاضر الأليم فقد أصبح أسيرًا، تلك الحياة التي عاشها المعتمد في ظل الأسر أثرت في حياته وتجربته الشعرية.

ونستطيع أن نقول إن هذه القصيدة بها تداخل غرضين؛ أولهما: رثائه لنفسه، وثانيهما: غربة وحنين إلى الأيام الماضية، وتعد صرخة في وجه الأيام التي حكمت عليه بالغربة، فهذه الغربة إجبار عليه.

([٥٨]) د. شوقي ضيف: فنون الأدب العربي (الرثاء)، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ص٣٠.

([٥٩]) الإحاطة: ج٢، ص١١٩.

وقد أسهمت التشكيلات الفنية في رسم صورة المعتمد بن عباد، وجاءت التشكيلات في تكرار حرف الباء (بأشلاء – بالحلم – بالعلم – بالنعمى – بالخصب – بالطاعن – بالموت – بالبدر – بالدهر)، فهذا التكرار شكل وحدة صوتية متناغمة عملت على توصيل ما يبتغيه الشاعر." هذا التلاحق والتوال متدفق: بالطاعن الضارب، بالحلم، بالنعمى، بالصدر في استرسال متدفق لا نظير له، مما منح تجربته صدقًا، وأكسبها بعدًا عميقًا، حيث تندفع لغة القصيدة اندفاعًا تلقائيًا أشبه بالتداعي، أملته حرارة التجربة ودافع المأساة أكثر مما أعملته الصنعة والتلكف"[٦٠]. بداية قصيدته بسؤال ضمني للقبر الذي حقًا فاز بأعضاء هذا الملك العظيم، وجاء الجواب (بنعم) بعد ثلاثة أبيات؛ ليعبر أن هذا الأمر أصبح واقعًا لا مفر منه.

تجتاح المعتمد حالة من الصراع النفسي داخل قصيدته وهذا الصراع أوجدته الغربة مع الأسر، فهو يرفض تلك الغربة حتى مع إحساسه باقتراب أجله، ويعبر عن ذلك بقوله(حقًا ظفرت) فالظفر يكون للأمر الثمين، وهو بذلك يستهجن أن يدفن خارج وطنه. حقًا إن" قصائد المعتمد في رثاء دولته، وبكاء واقعه، كثيرة وفريدة، ولم يحدث قبله أن فاضت ينابيع الشعر في أعماق أمير فصور لنا مأساته وأحزانه وآلامه وتأسيه، وصاغ التجارب موحية مثيرة من مواقفه ومآسيه، كما صنع المعتمد، في خبرة صادقة، ومعاناة حقيقية، وإيقاع حزين، ولكنه في كل الحالات ينبض نبلًا، وينضح بكبرياء عجيب"[٦١]. ولعل في دلالة الفعل(وافاني) ما" يضاعف الكثافة الدلالية والنفسية التي تتمثل بترقب الموت والإيمان بالقضاء والقدر"[٦٢]، ولقد اهتم كثير من الباحثين بالعلاقة بين شعر المعتمد بن عباد في فترة أسره وبين شعر

([٦٠]) د. فاطمة طحطح: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص١٩٣.

([٦١]) د. الطاهر مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ص٢٤٠،٢٤١.

([٦٢]) فدوى عبدالرحيم قاسم: الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، ص٢٢٩.

الأسر لدى أبي فراس الحمداني[٦٣]. أما ابن الخطيب فعندما أحس بدنو أجله قال هذه الأبيات(من المتقارب):

بَعُـــدَنَا وَإِنْ جاورتنـــا الْبُيُـــوت وَجِئْنَـــا بِـــوَعْظٍ وَنَحْـــنٌ صَـــمُوتْ
وأنفاســـــنا سَـــــكَنَتْ دَفْعُـــــة كَجَهْـــرِ الصّـــلاَة تَـــلاَهُ الْقُنُـــوتْ
وكُنـــا عِظَامًـــا فَصِـــرْنَا عِظامًـــا وكنـــا نقـــوت فَهَـــا نَحْـــنُ قُـــوتْ
وكُنـــا شُـــموس سَـــمَاء الْعُـــلَا غـــربن فناحـــت عَلَيْهَـــا الْبيُـــوتْ
فَكَـــمْ خَـــذَلْت ذا الْحُسَـــامِ الظِّبَـــا وذو الْبَخْـــت كـــم جدلتـــه البخـــوتْ
وَكـــم سِـــيقَ لِلْقَبْـــرِ فيـــى خَرَقَـــة فَتـــى ملئَـــت مـــن كَسَـــاه التخـــوتْ
فَقُـــلْ للِعَـــدا ذهِـــبَ ابْـــن الْخَطِيـــب وفـــات وَمَـــن ذا الَّـــذِى لاَ يَفُـــوتْ
فَمَـــنْ كَـــانَ يَفْـــرَحُ مِـــنْكُمْ لَـــهُ فَقُـــلْ يَفْـــرَحُ الْيَـــوْم مَـــنْ لاَ يَمُـــوتْ[٦٤]

نجد أن ابن الخطيب يتوقع الموت ويحمل في طيات نفسه مشاعر وأحاسيس برهنت الأيام والليالي على صدقها، ولذلك فقد سكن قافيته وكأنه يتوقع ذلك المصير، يحاول أن يرسم بقلمه صورة واقعية لحياته، فقد كان عالمًا عظيمًا وأصبح الآن بعد موته عظامًا يقتات منها الدود، وهو يؤكد أن أكابر القوم لقوا مصرعهم لرفعتهم وشهرتهم، ويؤكد أن الموت كأس يتجرعه كل إنسان.

واستخدامه لكم الخبرية والتي تعد لونًا من الاجترار الأسلوبي تفضي إلى التحسر على زوال وضياع مكانته، و" هو يترقب الموت المحتم في داخل سجنه فيبعد نفسه، مقارنًا بين حاله هذه وهو يواجه المنية وبين ما كان عليه في حياته، ثم يذكر أعداءه

([٦٣]) يراجع د. صلاح محمد جرار: قراءات في الشعر الأندلسي، ط٣، دار المسيرة، عمان، الأردن، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م، ص١٣٩ : ١٤٨. وعامر عبدالله عامر عبدالله: تجربة السجن في شعر أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٢٢١:٢٦٤.

([٦٤]) الإحاطة: ج١، ص٤٣.

في سخرية بما سيواجهون من فناء، مهما كانت أوهامهم عن الخلود"[٦٥]. ولذلك فإن قصيدة رثاء النفس" لا تمجد المرثي وتعدد محاسنه ولكنها تصور معاناة ذاتية في وقت عصيب يعيشه الشاعر، فالمنية تتراءى أمامه، وتمثل بين عينيه"[٦٦].

أما فيما يتعلق بشعر النقوش والشواهد على القبور فهو موجود بكثرة في كتاب الإحاطة، حاول الشعراء تخليد ذكراهم في عقول الناس، فأمروا أن تكتب أشعارًا على قبورهم،" وأنها ما جرت به عادة الأندلس رغبة في تخليد الذكر بجلائل الأعمال حينًا، وتسجيلًا لطلب المغفرة والرضوان والأمل في عقبي الدار، أو تصوير مراحل العمر التي قطعوها في تمتع زائل وسرور عارض حينًا آخر"[٦٧]، يقول أحمد بن أيوب اللماي[٦٨] عندما أمر أن يكتب على قبره(من الطويل):

بَنَيْتُ وَلَم أَسْكُنْ وَحَصَّنَت جَاهِدًا فَلَمَّا أُتِى الْمَقْدُورِ صَيَّرَهُ قَبْرِي
وَلَم يَكُ حظِّي غَير مَا أَنْتَ مُبْصِرٌ بِعْيَنِك مَا بَيْنَ الذِّرَاعِ إِلَى الشِّبرِ
فَيَا زَائِرًا قبْري أُوصِيك جَاهِدًا عَلَيْك بتَقْوى الله فِي السِّرِ وَالْجَهْرِ
فَلاَ تُحسِنَنَّ بِالدَّهْرِ ظنًّا فَإِنَّمَا مَنْ الْحَزْمِ أَلَّا يُسْتَنام إِلَى الدّهْرِ[٦٩]

هذه الأبيات رسالة يوجهها الشاعر إلى كل من يزور قبره، فها هو قد بني مسكنه ولكن عندما أتاه مصيره المحتوم، وقف عاجزًا أمامه، ولم يكن حظه من هذه الدنيا الفانية غير ذلك القبر، ويوصى زائر القبر بتقوى الله في السر والعلن، وفي استهلال الشاعر بالفعل(بنيت) نجد فيه أملًا للبناء والتعمير ولكن الشاعر يوضح

([٦٥]) د. حسن أحمد النوش: التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ص٤١٧.

([٦٦]) د. عبد العزيز السبيل: مجلة عالم الفكر" ثنائية النص قراءة في رثائية مالك بن الريب"، ع١، ١٩٩٨م، م٢٧، ص٦٥.

([٦٧]) د. حسن أحمد النوش: التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ص٤٥٠.

([٦٨]) أحمد بن أيوب اللماي من أهل مالقة، يكني بأبي جعفر توفي سنة ٤٦٥هـ.

([٦٩]) الإحاطة: ج١، ص٢٣٥.

حقيقة هذا البناء بقوله(ولم أسكن) وإنما قام بعمل حصن الذي تحول إلى قبره. ونفس الموضوع نجده عند محمد بن مالك[٧٠] يقول(من الخفيف):

يَا خَلِيلِي عَرِّجَ عَلَى قبري تَجد أَكْلَة التُّرَبِ بَيْنَ جَنْبِي ضَرِيح
خَافَتُ الصَّوْتِ إذا نطقتُ وَلَكن أَيّ نطق إن اعْتبرت فَصِيح
أَبْصَرَت عيني العجايب لَكِنْ فَرَّقَ الْمَوْت بَيْنَ جسمي وَرُوحي[٧١]

فالشاعر يوصي بنقش هذه الأبيات على قبره، ويستهلها بمخاطبة صديق له، لقد أصبح الخليل مشاركًا له في أحزانه، ورفيقًا مؤنسًا له في أيام الغربة والوحشة، فيطلب منه زيارة قبرة ليتعظ من هذا الموقف، فساعة الموت تدق معلنة اقتراب الأجل. وقبل أن أنتهي من مبحث الرثاء، أود أن أشير أن كتاب الإحاطة به مثال على رثاء الحيوان، ولم يكن رثاء الحيوان من الموضوعات المستجدة فقد كان موجودًا في الشعر العربي، وأشهر مثال في العصر العباسي للشاعر ابن العلاف[٧٢] فيقول (من المنسرح):

يا هرُ فارقتنا ولم تَعُد وكُنتَ منَّا بمنزلة الولد
فكيف ننفكُ عن هواك وقد كنتَ لنا عُدةً من العدد[٧٣]

لقد رسم ابن العلاف صورة لرثاء الهر وقد عدها ابن خلكان" من أحسن الشعر وأبدعه، وعددها خمسة وستون بيتًا،... وفيها أبيات مشتملة على حكم"[٧٤]،

([٧٠]) محمد بن مالك المري الطغنري من أهل غرناطة، كان أديبًا وشاعرًا وتوفي سنة ٤٨٠هـ.

([٧١]) نفسه: ج٢، ص٢٨٤.

([٧٢]) أبو بكر الحسن بن علي بن أحمد بن بشار بن زياد المعروف بابن العلاف الضرير النهرواني توفي سنة٣١٩هـ.

([٧٣]) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ت: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م، مج٢، ص١٠٩.

([٧٤]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ص١٠٩.

تلك القصيدة تمثل رمزًا في العصر العباسي الثاني فقد رثي بها عبد الله بن المعتز وخشي من الخليفة المقتدر بالله، فرمز بالهر إلى ابن المعتز خوفًا من بطش المقتدر، وقد لجأ الشاعر إلى الرمز" خوفًا من بطش الحكام وللظروف السياسية التي تمر بها بلدانهم،.... فالعصر العباسي شهد تطورات سياسية جسيمة دفعت بالشعراء إلى استخدام الرمز خوفًا من بطش الحكام بهم"[٧٥]. أما في كتاب الإحاطة فالأزدي يرثي ديكًا له[٧٦]، فيقول(من البسيط):

أوْدى بِهِ الْحَتْف لَمَّا جَاءَهُ الْأَجَلِ ... دِيكًا فَلاَ عِوَض مِنْهُ ولا بَدَل

قَدْ كَانَ لِي أَمَلٌ فيى أن يَعِيش فَلَمْ ... يَثْبُتُ مَعَ الْحَتْف في بُغْيا لها أَمَل

فقدته فلعمْري إنهَا عِظَة ... وبالمواعظ تذْرَي دَمْعُهَا الْمُقِل

كأنّ مِطْرَفَ وَشْي فَوْقَ ملبسه ... عليهِ من كَلّ حُسن بَاهِرِ حُلَل

كأنّ إكْلِيل كِسْرَى فَوْقَ مَفْرِقِهِ ... وَتَاجَهُ فَهو عَالي الشَّكْلِ مُحْتَفِل

مُؤَقَّت لم يكنْ يُحْزى له خطأ ... فيما يرتّب من ورد ولا خلل

كأنَّ زَرْفيل فيما مَرَّ عَلَّمه ... عِلْمَ المواقيت فيما رَتَّبَ الأُول

يُرَجِّل الليل يُحيي بالصراخ فما ... يصدُّه كَلَلٌ عنه ولا ملّل

رأيته قد وهت منه القوى فهوى ... للأرض فعلاً يريه الشَّارب الثمل

لو يُفْتَدى بديوك الأرض قلّ له ... ذاك الفداء ولكن فاجأ الأجل

قالوا الدواء فلم يُغْنِ الدَّواءُ ولم ... ينفعه من ذاك ما قالوا وما فعلوا

أَمَّلْت فيه ثوابًا أجر محتسبٍ ... إن قلت ذاك صحذَ القولُ والعملُ[٧٧]

([٧٥]) منى حسن رجب: وصف الحيوان في شعر العصر العباسي الثاني، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الفيوم، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ص٣٤٠.

([٧٦]) عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي من أهل بلش، يكني بأبي محمد ويعرف بابن المُرابع، توفي سنة ٧٥٠هـ.

([٧٧]) الإحاطة: ج٣، ص٤٢٤.

إن المتأمل في الأبيات يرى أن الشاعر جعل من هذا الديك أمله في الحياة، ثم يسرد أوصاف هذا الديك، فريشه جميل، وتاجه فوق رأسه كأنه إكليل كسرى، وترى الباحثة أن رثاء الشاعر للديك يعد معادلًا موضوعيًا، يسقط عليه الشاعر آلامه وآماله في الحياة،" فاختيار الشاعر للديك تحديدًا يوحي بإشارات لملك، منها التاج والحلل الباهرة ومشية الزهو والكبرياء. فالشاعر لأسباب سياسية ربما اتخذ من رثاء الديك مطية للتعبير عن رثائه لزعيم سياسي كانت له به علاقة، ولم يستطع الشاعر إعلان رثائه لسبب ما، فلجأ إلى الكناية عنه، فقد كان الديك أمل حياته الذي تعلق به الشاعر، وربما قصد الشاعر العطاء المالي، وإلا فما هي العظة من موت الديك؟ والمعروف أن العظة تحصل في موت الجبابرة، أو المتسلطين، أو حتى الأغنياء!"[٧٨].

وبهذا كان شعر الرثاء في كتاب الإحاطة، وقد جاءت اختيارات ابن الخطيب متنوعة ما بين رثاء خاص، ورسمي، ورثاء النفس، والمدن الزائلة، حاول الشعراء في قصيد الرثاء أن يعبروا عن الواقعة التي ألمت بهم، فتلمسنا صدق العاطفة وبالأخص في الرثاء الخاص ورثاء النفس، وهكذا يبقى الرثاء" ما دام الإنسان مدنيًا بطبعه، اجتماعيًا بكينونته، يعاني روابطه مع ذويه وعلاقته مع أصدقائه يعيش هذه الحياة حلوها ومرها، يعاني متاعبها ويفجع بمصائبها، وتحزنه حوادثها، سيبقى موجودًا ما دام هناك ولادة وفناء، وحياة وموت"[٧٩].

([٧٨]) د. فاطمة مفلح: آخر دموع غرناطة، ص١٢٧.

([٧٩]) د. محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس، مطابع الرسالة، الكويت، ١٩٧٩م، ص٢٩٤.

المصادر والمراجع

أولًا: مصدر الدراسة الشعرية:

(١) **لسان الدين بن الخطيب:** الإحاطة في أخبار غرناطة، ت: محمد عبد الله عنان، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

ثانيًا: المراجع التراثية:

(٢) **أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي(الديوان):** ت: د. محمد رضوان الداية، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(٣) **ابن خلكان:** وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ت: د. إحسان عباس، مج ٢، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م.

(٤) **ابن رشيق القيرواني:** العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ت : د. النبوي عبد الواحد شعلان، ط١، مطبعة الخانجى، القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(٥) **ابن الرومي(الديوان):** ت: حسين نصار، ج٢، ط٣، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

(٦) **عبد الواحد المراكشي:** المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ت: محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٣م.

(٧) **عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري:** صحيح البخاري، ط١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

(٨) **الفتح بن خاقان:** قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، ت: د. حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار للطباعة والنشر، الأردن، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

(٩) **قدامه بن جعفر:** نقد الشعر، ت : كمال مصطفي، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٩م.

(١٠) **ابن اللبانة الداني(الديوان):** ت: د. محمد مجيد السعيد، ط٢، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

(١١) **ديوان المعتمد بن عباد ملك إشبيلية:** ت: د. أحمد أحمد بدوي، د. حامد عبد المجيد، أشرف عليه وراجعه: د. طه حسين، ط٣، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

(١٢) **المقري التلمساني:** نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م.

(١٣) **ديوان الهذليين:** ت: أحمد الزين، محمود أبو الوفا، ج١، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

ثالثًا: المراجع الحديثة:

(١٤) **د. حسن أحمد النوش:** التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

(١٥) **د. حسناء بوزيتة الطرابلسي:** حياة الشعر في نهاية الأندلس، ط١، دار محمد علي الحامي، صفاقس، مركز النشر الجامعي، تونس، ٢٠٠١م.

(١٦) **د. سعد إسماعيل شلبي:** البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف، دار النهضة المصرية، الفجالة، القاهرة، ١٩٧٨م.

(١٧) **د. شوقي ضيف:** فنون الأدب العربي (الرثاء)، ط٤، دار المعارف، القاهرة.

(١٨) **د. صلاح محمد جرار:** قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة، عمان، الأردن، ط٣، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

(١٩) **د. الطاهر مكي:** دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.

(٢٠) **د. عبد الحميد شيحة:** الوطن في الشعر الأندلسي "دراسة فنية"، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(٢١) **د. عبد الرشيد عبد العزيز سالم:** شعر الرثاء العربي واستنهاض الهمم، ط١، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨٢م.

(٢٢) **د. فاطمة طحطح :** الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ط١، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٣م..

(٢٣) د. **فاطمة مفلح العبد اللات:** آخر دموع غرناطة " شعر الرثاء في عصر بني الأحمر"، ط١، دار الثقافة والإعلام، الشارقة، ٢٠١٢م.

(٢٤) **د. فوزي عيسى:** ١- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٧م.

(٢٥) **د. فوزي عيسى:** ٢- في الأدب الأندلسي، ط١، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٨م.

(٢٦) **د. محمد مجيد السعيد:** الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس، مطابع الرسالة، الكويت، ١٩٧٩م.

(٢٧) د. **محمد مفتاح:** ١- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.

(٢٨) د. **محمد مفتاح:** ٢- دينامية النص تنظير وانجاز، ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م.

(٢٩) **د. مصطفى الشكعة:** الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ط٦، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م..

(٣٠) **د. مقداد رحيم:** رثاء النفس في الشعر الأندلسي، جهينة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

(٣١) د. **نازك الملائكة:** قضايا الشعر المعاصر، ط٥، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.

(٣٢) **د. نافع محمود:** اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري.

رابعًا: المراجع الأجنبية المترجمة:

(٣٣) **إميليو غارثيا جوميث:** الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه، ت: د. حسين مؤنس، ط٢، دار الرشاد، ٢٠٠٥م.

(٣٤) **آنخل بالنثيا:** تاريخ الفكر الأندلسي، ت: د. حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٥م.

خامسًا: الرسائل العلمية:

(٣٥) **عامر عبدالله عامر عبدالله:** تجربة السجن في شعر أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

(٣٦) **فدوى عبدالرحيم قاسم:** الرثاء في الأندلس عصر ملوك الطوائف، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

(٣٧) **د. مخيمر صالح موسى:** رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣٨) **منى حسن رجب:** وصف الحيوان في شعر العصر العباسي الثاني، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الفيوم، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

سادسًا: المجلات والدوريات:

(٣٩) **د. عبد العزيز السبيل:** مجلة عالم الفكر" ثنائية النص قراءة في رثائية مالك بن الريب"، ع١، م٢٧، ١٩٩٨م.

(٤٠) **د. محمد أحمد عدنان:** مجلة الموقف الأدبي" قراءة في عينية أبي ذؤيب الهذلي"، العدد ٢٩١، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٥م.